الفصل الاول

فى النظرية الرومانسية للشعر

المتأمل فى التراث النقدى لاسماعيل أدهم يلاحظ أنه كان يدور فى فلك النظرية الرومانسية . ولقد ألقت تلك النظرية بظلها على مدارس الشعر العربى الحديث ، مدرسة الديوان ، ومدرسة المهجر ، ومدرسة أبولو .

ولابد - منهجيا - لمؤرخ النقد أن يقف امام المنابع التى استقى منها هؤلاء الشعراء والنقاد مفهومهم لماهية الشعر ، وطبيعته ووظيفته ، وللصورة الشعرية ، والخيال والأسطورة والرمز ودور اللغة ، ونظرة الشاعر للعالم والطبيعة .

من هنا ، تأتى المقدمة المنطقية للبحث ، بمثابة المهاد النظرى الذى يساعد فى التعرف على مفهوم اسماعيل أدهم لنظرية الشعر .

والحديث عن الرومانسية شائق شائك ، فهو شائق لأنه يمس الوجدان ، وشائك لاتساع المفهوم وتشعبه ، واذا اتسعت الرؤية ، ضاقت العبارة . فقد غطى المصطلح أنواعا أدبية كثيرة . حيث أطلق على الرومانس (١) وعلى الأعمال الأدبية التى تقوم على المبالغات ، وتحتوى على أشياء غير معقولة .

ومن العسير أن يصل المرء الى تعريف جامع مانع - على حد تعبير المناطقة - للرومانسية . فقد أحصي بعض مؤرخى الأدب عام ١٩٢٥ مائة وخمسين تعريفا للرومانسية . (٢) وتشارلز مورجان يقول : " والشواهد التى جاء بها المستر بارزون تدل على أن الكلمة التى استعملها كتاب محترمون فى معنى " غير واقعى " و " واقعى " و " محافظ " و " ثورى " و " روحى " و " مادى " . ولقد بلغ هذا الاختلاط المدى الذى ليس لأحد أن يأمل بعده فى تثبيت استعمال يراعيه الجميع، فخير ما يفعله أى كاتب هو أن يعرّف مصطلحاته هو ، التعريف الذى يصلح لبحثه هو (٣) .

مهما يكن من أمر ، فلست فى مجال الحديث عن تاريخ المصطلح . إلا أن الحديث عن مصطلح الرومانسية يبرز نقطة هامة ، هى استعماله فى مقابل مصطلح آخر . " كلاسيكى " الذى كان يعنى كل عمل أدبى كتب بروح التقاليد الإغريقية والرومانية .

وتتميز الرومانسية ، فى ملامحها العامة ، بأنها محاولة لفهم الشعر على أساس أنه تعبير عن العالم الداخلي للشاعر وليس انعكاسا للطبيعة . أو لنقل انه عملية ابتداع وليس صنعة . ويتولد عن هذا المفهوم أو التصور أن عالم الشاعر الداخلى عالم واسع ، يتضمن

حالته الذهنية ، وأفكاره وطاقاته ، ويقظة الحدس والإدراك لديه . وكـل هذه العناصر مجتمعة : شعورية وذهنية تتآزر فى بوتقة الخيال الخالق . وعمل الخيال الخالق هنا ، صهر هذه العناصر ، وتعديلها وتنظيمها ، وتجميع شتاتها ، بحيث تظهر فى النهاية فى قالب شعرى متجانس .

إن الشعر ، وفق النظرية الرومانسية ، تعبير عن العالم الداخلى للشاعر ، وبالمقابل تعبير عن رؤيته الذاتية للعالم الخارجى . فالعالم الخارجى تعبير عن الأنا . ومن خصائص هذا الشعر ، أن الشاعر يولى الخيال أهمية كبيرة ، والشاعر الرومانسى ، فى توجهه المعرفى للعالم ، يتغيا معرفة جوهر الحقائق ، والنظر للطبيعة على أنها كائن حى ، وإعطاء الأسطورة والرمز أهمية كبيرة فى التعبير الشعرى .

والمتأمل فى التراث النقدى للرومانتيكية يلاحظأن كثيرا من الشعراء كانوا ، فى الوقت نفسه ، نقادا طرحوا مفهومهم للشعر ولوظيفته فى المجتمع وطبيعى أنهم وهم بصدد إرساء مبادئهم النقدية كانوا يسعون لإزاحة المفهومات الكلاسيكية للشعر .

فالشاعر الانجليزى وردزورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠) نشر ديوانه قصائد قصصية غنائية The lyrical ballads طرح فى مقدمته لديوانه مفهومه للشعر من حيث أن الشعر يقوم على الانفعال ، وقيمته تكمن فى تعبيره عن الشعور (٤) .

وعند ورد زوروث أن الشعر فيض المشاعر القوية فيضا ذاتيا ، وأنه ينتج من عاطفة تستذكرها فى حالة الهدوء ، فماتزال تلك العاطفة المستذكرة موضع التأمل ، حتى يحدث شئ من رد الفعل فينمحى على أثره ما يشتملنا من هدوء ، ثم تنشأ بالتدريج عاطفة أخرى قريبة الشبه بالعاطفة الأولى التى كانت موضعا للتفكير ، فلا تلبث هذه العاطفة الثانية أن تملا شعاب العقل . فى مثل هذه الحالة الشعورية ، يبدأ إنشاء الشعر الصحيح ثم يتصل الإنشاء فى حالة شعورية شبيهة بتلك (٥) .

وقد يشى هذا النص - ربما - للقراءة الأولى بأن الشعر فيض من الذات وأن لا جهد للشاعر أو وعى فى عملية الابتداع الشعرى . إنما هى نتاج لحظة صفاء وهدوء نفسى . إلا أن وردزورث يبسط القول ، موضحا ، شارحا ما يقصد فى موضع آخر " ... فما الشعر الجيد بأسره إلا فيض المشاعر القوية من تلقاء نفسها . على أنه ، وإن كان هذا حقا ، فإن القصائد التى تستحق شيئا من التقدير ، مهما اختلف موضوعها ، لم ينظمها قط إلا رجل فضلا عما

أوتيه من حس مرهف ممتاز ، قد أطال التفكير وغاص إلى أعماقه ، وذلك لأن فكر الانسان يشكل مجرى شعوره المتدفق المتصل ويأخذ بزمامه ذلك الفكر الذي ان هو فى حقيقة الأمر إلا صورة تمثل كل ما مضى بنا من مشاعر . وكما أن الإنسان إذا أنعم الفكر فيما يربط تلك الصور الذهنية العامة بعضها ببعض من صلات ، تبين له من العلم ما يهمه فى حياته ، فكذلك إن هو عاود هذ التفكير وواصله فإن مشاعره سترتبط بتلك الحقائق الهامة ارتباطا ينتهى به ، إذا كان ذا طبيعة موهوبة بالحساسية الخصبة ، إلى اكتساب عادات عقلية من شأنها - إذا أطاع دوافع تلك العادات إطاعة آلية عمياء أن تمكنه من وصف الأشياء والتعبير عن العواطف التى تنير عقل القارئ الى حد ما وتزيد من عاطفته قوة وصـــفاء ، بحكم طبيعتـــها واتصـال أجزائها (٦) .

فوراء مجرى هذا الشعور المتدفق ، عملية فنية مرتبة ، يشحذ الشاعر فيها طاقاته الذهنية والنفسية والتعبيرية ، ثم يستخدم هذه الطاقة فى صورة فنية شعرية ، بمعنى أن الشعر يأتى ثمرة للجهد الفنى والفكرى ، فالتعبير الشعرى يرفده فكر الإنسان الذى يغتذى بالعاطفة والشعور . فإن كان الشاعر ممن يؤتى الحكمة ، فإنها تمكنه من وصف الأشياء والتعبير عن العواطف التى تنير عقل القارئ وتذكى من عاطفته .

ومهمة الشعر ، فى النظرية الرومانسية تتحقق من خلال المتعة أو اللذة التى يشيعها فى وجدان المتلقى فـ " الغرض من الشعر هو أن يؤثر فى النفس أثرا يبقى ما بقيت نشوته ، وإن كانت النشوة أرجح مدارا من التأثر (٧).

والشاعر هو ضمير الإنسانية ، ومن ثم فمعرفته ، تكون جزءا لازما من وجودنا ، وإرثا طبيعيا لا ينفك ملازما لنفوسنا ، أما علم العالم فلا يعدو شخصه ونفسه ، فإن سار إلى نفوسنا كان وئيد الخطى ، وهو لا يثير فينا عاطفة مباشرة تربطنا بسائر إخواننا من البشر .

إن العالم لينشد الحقيقة كأنماهى تعيين خبر مجهول لا تصله بنفسه الصلات . فهو يعشقها ويحبها ، وحيدا لا يشاطره الحب انسان ، أما الشاعر فإذا غرد انشودة شاركته فى تغريده الانسانية بأسرها . وانه ليغتبط إذ يرى الحقيقة صديقة للإنسان سافرة عن وجهها ورفيقة تلازمه ولا تهجره . إن الشعر من المعرفة كلها انفاسها المترددة وروحها الشفاف ،إنه هو ما ترى على جبين العلم من علائم العاطفة ، وتستطيع أن تقول فى الشاعر صادقا ما قاله شكسبير عن الإنسان من أنه يستذكر الماضى ويتسلف مقبل الأيام ؛ : إن الشاعر حصن يذب عن الطبيعة البشرية فهو يحفظها ويحميها ، وينشر الحب والقربى اينما ارتحل . إنه رغم ما

يضرب بين البشر من تباين فى الارض والهواء واللغة والأخلاق والعادة والقانون ، ورغم ما يتسلل من العقل فيمحى ، ورغم ما تعصف به الأيام فيتقوض ، تراه يوشج الأواصر بين الجماعة الإنسانية المترامية أطرافها بعاطفته ومعرفته ، فيصل ما قطع الزمان وما نشر المكان بين افرادها . إن الشاعر أينما وجه النظر صادف موضوعا لخواطره فلئن كانت نواظر الإنسان وحواسه هى بحق دليله الأمين . إلا أنه يؤثر أن يتجه إلى حيثما يجد مجالا من الإحساس يسمو فيه بجناحيه ويحلق . وإذن فالشعر من ضروب المعرفة بأسرها هو الأول والآخر - فإنه باق على الزمان ما بقى قلب الانسان " (٨) واحسب أن هذا الطرح من الوضوح بما لا يدع مزيدا او فضلة لمتطفل على النص .

والشاعر لا يلتزم إلا بقيد واحد ، وهو أنه يتيح الطرب بشعره لكائن من كان من البشر اذا توافر ما لديه من المعرفة ما يفرض فيه . ولست أعنى بتلك المعرفة علم المحامى أو الطبيب أو الملاح او الفلكى أو الفيلسوف الطبيعى ، ولكنى أقصد معرفة الإنسان باعتباره إنسانا (٩) .

اما شللى Shelley (١٧٩٢ - ١٨٢٢) فيعبرعن الفكرة ذاتها ، وتتمثل فى أن " الشعر تعبير عن العالم الداخلى للشاعر بما فيه من انفعالات ومشاعر .فالشعر تصوير لأسعد اللحظات وأفضلها التى تغشى العقل ، ونحن على علم بزورات الفكر والشعور العابرة ، التى قد ترتبط بمكان ما أو شخص ما ، ولكنها ، دوما ، تهجم علينا دون توقع أو انتظار ، كما ترحل دون أن نأذن لها بالرحيل . وأن الحماس للفضيلة والحب ، والوطنية والصداقة ، يرتبط أساسا بالانفعال (١٠) .

أما الأخوان شليجل : (أوجست وليام فون شليجل ١٧٦٧ - ١٨٤٥) وأخوه الأصغر فرديريك فون شليجل ١٧٧٢ - ١٨٢٩) فقد كانت لهما جهود فى إثراء النظرية الرومانسية - يقول أوجست شليجل :

إن المحاكاة دائما ما تتميز بالعقم . وإن ما نستعيره من غيرنا ، ينبغى أن يولد من داخلنا ،إذا قدر له أن يأخذ شكلا شعريا حقيقيا ... وليس ثمة فن بلا طبيعة . والشاعر ، لايمكنه أن يقدم لبنى جلدته من البشر سوى نفسه . وبوجه عام ، فإن شعر المحدثين يتجه نحو الداخل ، وخيالهم أكثر روحية وافكارهم اشد ميلا للتأمل (١١) .

أما هازليت Hzlitt فيرى أن الشعر لغة الخيال والعواطف ، فهو يتصل بكل شئ لذة

أو ألما فى الإنسان ، وهو يستقر فى أفئدة الناس وأعمالهم . فما من شئ يستقر فيها ، فى أتم وأوضح صورة إلا ذلك الذى يمكن أن يكون موضوعا للشعر (١٢) .

* * *

الفن من زاوية المبتدع :

يقول لاسل إبروكرومبى : " اذا نظر إلى الأدب كأنه وسيلة للتعبير عما يجيش بصدر المؤلف من فكرة أو خاطر أو عاطفة ، فإن هذا يرينا العنصر الذاتى Subjective فى الأدب ، وهذا ينتهى بنا إلى مذهب الرومانتيزم ، وأهم شئ فيه هو ما يحسه الشاعر (١٣) فالرومانسية ترمى إلى التمييز والتفريق بين العنصر الذاتى الشخصى والعنصر الموضوعى Objective فى التجارب البشرية ، ما بين الشخص الذى يجرب والعالم الذى يجرب ، ما بين الحياة الباطنية للإنسان والحياة الظاهرية للكون (١٤) .

إن الشاعر الرومانسى يستغرق فى عالمه الداخلى بكل ما يمور فيه من انفعالات ورؤى . ويتبغى أن نحترز فى التعبير خشية أن تزل اقدامنا فنقع فىْ دائرة التعميم . فليست الرومانسية تمجيدا للانفعالات الخاصة . فهى وان ألحت على العالم الداخلى للشاعر ، إلا انها كانت تفكر بقلبها ان صح التعبير . يقول فان تيجم : " والأدب الجديد - أى الرومانسى - سيكون ذاتيا وليس موضوعيا ، والحقيقة الخاصة ، حقيقة القلب ، هئ التى سيحاول الفنان ان يلاحظها ثم يرسمها " (١٥) .

ويصور الشـــاعر الفرنسى لامارتين La martine (١٧٩٠- ١٨٦٩) رؤيته للشعر : سيصبح الشعر ذاتيا على الخصوص ، وشخصيا وتأمليا وهاما ، الصدى العميق الصادق للتأثرات الأكثر سرية فى النفس ، إنه سيكون الانسان نفسه وليس صوته ، الإنسان الصادق بكليته " (١٦) .

والشاعر الألمانى نوفاليس Novalis (١٧٧٢ - ١٨٥١) ، فيرى أن " الشعر تمثيل للشعور والعالم النفسى فى مجموعه ، وكلما كان الشر فرديا وذا طابع محلى ، وصبغة حاضرة ذاتية ، كان أقرب إلى صميم الشعر (١٧) .

وعلى هذا النحو ، أطلق الرومانسيون العنان لإحساسهم الفردى ، حتى جاء أدبهم صورة

لذات أنفسهم ، ولولا ما يربط بينهم من مبادئ وقضايا عامة لكان أدب كل منهم ذا طابع خاص لا يشاركه فيه آخر (١٨) ومن ثم جاء الشعر ، فى النظرية الرومانسية ، تعبيرا عن حالات فردية خاصة لأن أهم ما يتميز به هو شعور التفرد والخصوصية .

وأود أن أشير ، بعد هذا الإطار الذى حام حول النظرية الرومانسية فى مفهومها ورسالتها . إلى أن الرومانسية موقف ثقافى عام ، يتراءى فى كل صور الثقافة وأشكالها ، ومعنى هذا أن الموقف الثقافى العام تعبير عن وجود اجتماعى معين ، عن حقائق نظام اجتماعى ومرحلة كاملة من مراحل تطور المجتمع ، وصياغة فكرية وعلمية وفنية لهذه الحقائق ... (الرومانسية) إنما تصدر عن أساس اجتماعى محدد ، هو نضج الطبقة البرجوازية ونهوض نظامها الرأسمالى وفى مجال الفن - وهو صورة من الثقافة وشكل من اشكالها - فإن الأصول الفكرية والجمالية للرومانسية ، من جهة أنها واحدة من مدارس الفن والأدب الكبرى ، إنما تفسر بهذا الأساس الاجتماعى .... لقد قامت هذه الطبقة بدور عظيم فى تحرير (الفرد) ، وفى الدعوة الى احترام كرامته الانسانية ، ونوهت بعمله الخلاق ، وكشفت عن عالمه الداخلى الثر الخصب ، لكنها لم تر فى هذا الفرد مجموع علاقات اجتماعية ، بل رأت فيه حقيقة فريدة فذة ، وجعلته محور كل الحقائق ، ووضعته فى تناقض مع المجتمع ، وعاملته على أنه دنيا مستقلة ، الأساس فيها (الذاتية) وجواهرها الأصيلة : الشعور والوجدان والعاطفة والحرية .

إن هذين الأمرين يجعلان هذا الموقف الاجتماعى لا يدرك فى المجتمع تناقضاته ، ولا يدرك فى الفرد علاقاته . وكل هذا يفضى الى (شخصية) ذات ملامح وسلوك ومثل خاصة : شخصية ذات طبيعة مزدوجة متقلبة ، متناقضة مترددة . الفرد هنا ضعيف ، يواجه العالم وحيدا .. يسلم بخشونة الواقع ، لكنه يستسلم له ، فهو يتجنب الصراع ويؤثر السلامة ، أو هو - هذا الفرد - قوى ، مريد يتميز بالحس البطولى المتفرد ، يصنع من نفسه ندا لعالمه الظالم ، لكنه يحارب المثال البورجوازى ، يمثل برجوازية ، فينتهى إلى تدعيم ما أراد الثورة عليه .

هذا الفرد - لتناقضه - يسدد بصره إلى آفاق العصر ، لكنه يهفو بقلبه إلى آثار الماضى (المستقر) ، يتردد بين القناعة الراضية والتطلع القاتل (١٩) .

على أن مؤرخ النقد الجمالى يقف أمام الأساس الفكرى والجمالى للرومانسية من حيث التوجه المعرفى ، متمثلا فى علاقة الوعى بالعالم الموضوعى ، مؤكدا أن تاثير المثالية الذاتية

قد جعل فى العلاقتين وخاصة فى علاقة الذات العارفة بالموضوع المعروف - العالم ، هو صورته التى تبدو لنا منه . أى أن هذه المثالية الذاتية قد جعلت الوجود الأولى للذات او للرعى الإنسانى ، وجعلت العالم الموضوعى من خلق هذه الذات ، إذ أن وجوده متوقف على إدراك مدرك له .. وما دام العالم الخارجى الموضوعى من خلق الذوات ، وما دامت الذوات تتغاير ، فإن كلا منها يخلق الالم على صورة خاصة . ومن شأن هذا النظر أن يجعل من الذاتى خالقا للموضوعى . ومن العالم (الداخلى) للذات العارفة أساسا لصورة العالم الخارجى لديها ، وأن يقدم الشعور والعيان والعاطفة على العقل والخبرة والتجربة . والفن - فى هذا السياق - (تعبير) عن الصورة للعالم ، وهى الصورة التى خلقتها الذات معتمدة (الشعور) و (الوعى العاطفى). وكمال التعبير ها هنا هو قدرة الفن على (تصوير) خلق الذات لعالمها الخاص .

فاذا كان الأمر فى الأساس الاجتماعى الإعلاء من الفردية والذاتية ، وتقديم الفرد على المجتمع ، فإن الأمر هنا - فى الأساسين الفكرى والجمالى - تقديم العاطفة على العقل ، والقلب على الدماغ ، والشعور على المنطق ، والوجدان على الاتزان ، والموهبة على الصنعة ، والالهام على المهارة ، والتلقائية على القانون الفنى ، والعفوية على الموهبة ... فالفن ادراك شعورى وتملك عاطفى للحقيقة . والإبداع لا منطقى لا عقلانى . وللفن قواعد وقوانين لكنها صادرة عن ذلك العالم الشعورى ، وله غاية هى الإمتاع ، وقد تكون له (فائدة) ، لكنها غيرمقصودة . .

وقد ترك كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) بفكره المثالى بصمات دامغة فى فكر الرومانسية وفنها . إذ كان تعبيرا متقدما عن المرحلة الثورية البرجوازية ، وتعبيرا عن الإعلاء من شأن الارادة الحرة للذات الفردة ، كما كانت لفلسفته جوانب تقدمية عقلانية وتجريبية . غير أن المثاليين بعد كانت - فى مرحلة المحافظة البرجوازية وأزمة الفكر الليبرالى - ارتدوا إلى مثالية متطرفة . حيث اهتم هؤلاء بتنمية العناصر الذاتية فى فلسفته على حساب العناصر الموضوعية [٢٠] .

بعد هذا المهاد الذى حدد الاطار الفنى والفلسفى للنظرية الرومانسية وكيف أنها جاءت عطاء للمجتمع البورجوازى الرأسمالى نحاول أن نتعرف على مفهوم اسماعيل أدهم لنظرية الشعر : ماهية الشعر ورسالة الشاعر وهو موضوع الفصل الثانى .

هوامش الفصل الاول :

(١) الرومانس نوع قصصى شاع فى العصور الوسطى ، وبخاصة فى الفترات الأخيرة منها ، وكان يدور حول الحب والفروسية ومغامراتهما . وكان بعض قصص الرومانس يصاغ شعرا ، وبعضها يصاغ نثرا . وقد استمد هذا النوع الأدبى من منابع بعضها تاريخى ، وبعضها يتصل بالآداب القديمة .
انظر : د . محمود الربيعى ، فى نقد الشعر ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ ، ص ٨٨ ، الهامش .

(٢) انظر : د . محمد غنيمى هلال ، الرومانتيكية ، مطبعة نهضة مصر ، ١٩٥٦ ، المقدمة .

(٣) تشارلز مورجان : الكاتب وعالمه ، ترجمة د . شكرى محمد عياد ، الألف كتاب (١٩٦٤) / ٦٧ ، ٦٨ ، وانظر د . احسان عباس ، فن الشعر ، بيروت . ١٩٥٩ /٣٩ .

(٤) See, R.A. Foakes : Romantic Criticism
(1800 - 1850) Arnold's English texts, 1968, F, 51

(٥) الشعر وألفاظه ، مقدمه الطبعة الثانية لديوان ورد زورث . وقد اعتمدت على ترجمة د . زكى نجيب محمود والمنشورة فى كتاب " قشور ولباب " دار الشروق ، ١٩٨١/٣٩ .

(٦) نفسه /١٨ .

(٧) نفسه /٣٦ ، ٤٤ ، ٤٥ .

(٨) نفسه / ٣٠

(٩) نفسه / ٢٨

(١٠) See Shelly, P.B; A defence of poetry, quoted
From : Edmund Jones, English Critical Essays.
(The nineteenth century) P. 133

(١١) See, Foakes, Opcit., p. 57

(١٢) See, Hazlitt, William, Lectures on the English poets .
The worls's No 255, 1952, p.l

(١٣) لاسل ابركرمى : قواعد النقد الادبى ، ترجمة د . محمد عوض محمد . ط . الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٤ ، /١٧ .

(١٤) نفسه / ١٧٢ .

(١٥) فان تيجم : الرومنطيقية ، ترجمة بهيج شعبان ، بيروت ، ١٩٥٦ /٢١ .

(١٦) نفسه / ٣٤

(*) Lexiconuniversia Encyclopedia, published by Lexiconpublications, inc. 1983, p. 271.

(١٧) د . محمد غنيمى هلال : الرومانتيكية ، نهضة مصر ، ١٩٥٦/٣٥ .

(١٨) نفسه / ٣٤ محمد عبد الهادى محمود : نظرية الصورة الشعرية عند مدرسة الديوان ،رسالة ماجستير ، غير منشورة ، الفصل الأول ، النظرية العامة للشعر واثرها فى الصورة الشعرية ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٢ .

(١٩) د . عبد المنعم تليمه : مقدمة فى نظرية الأدب ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٣/١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢٠) نفسه .